لكن من الذي يمسك بزمام الأمور؟

مي غصوب

كان اليوم الذي تعرفت فيه على لميا، على شاطئ البحر، يوماً حاسماً في حياتي، حياتي عندما كنت طفلة. هذا ما اعتقدته على الأقل حتى وقت قريب جداً.

في المدرسة كانت تحيّرني، فقد كانت تختلف عنا، ولا يمكنني القول ما الذي جعلها مختلفة، لكنها بدت مستغلقة عليّ. فابتسامتها أكثر تحفظاً من ابتساماتنا، ولم نر شعراً أقصر من شعرها. وكانت سيماؤها الحذرة، وعباراتها المترددة، تعزز إحساساً بالعزم يُصاحب كلماتها النادرة، كما لاحت خطواتها البطيئة طليقة في ملعب كرة السلة. هناك، كان جسدها يتحرك مثل غزال بري بهيج رشيق وذي سطوة. كانت لميا قوية. فهي تركض أسرع من أي لاعبة أخرى. وتقفز أعلى منا جميعاً، أعلى حتى من أطول بنت في مدرستنا. وحينما تمسك الكرة بيديها، تبدو مثل إحدى الرياضيات التي رأيتها مرة في التلفزيون، وهي تحمل المشعل عالياً بثبات، وتدشّن الألعاب الأولمبية فخورةً أمام حشد ملوّن يرين عليه السكون.

مرة، كانت لميا تسبح في البحر، تغطس تارة تحت الماء برفسة مفاجئة من ساقيها، لتظهر، طوراً، وهي تنفض رأسها بعجلة، آخذة نفساً عميقاً قبل أن تضغط بأصابعها المبللة على أنفها.

رأتني واقفة حائرة ومترددة على الشاطىء، أجسّ حرارة الماء بإصبع قدمي. لوّحت لي بمعنى أن تعالي، ومنحتني ابتسامة كبيرة. كان للماء المنعش تأثير عجيب على لميا، فلم تكن تستطيع التوقف عن الكلام على الصيف وعطلاته، والألعاب المختلفة والتسليات التي يمكن ممارستها في الماء. وبدأت أتصور أنها مثل الفتيات الأخريات، ما خلا أنها تملك طاقة أكبر بكثير منهن.

فالألعاب التي كانت تحب ممارستها، ذات حدود مستحيلة: هل يمكنك العدّ حتى الخمسين وأنت غاطسة تحت الماء؟ هل يمكنك السباحة حتى خشبة الطوّافة، مع الإبقاء على ساقيك

متصالبتين؟ هل يمكنك...؟ وأحسست أني أستطيع محاولة المستحيل، كما لو أنها شخص وهمي استحال فتاة صغيرة بإمكاني التسلي معها!!

دشّن اليوم الذي لوّحت فيه لميا لي على شاطىء البحر، بداية صداقة طويلة ومضطربة. كان الخوف يستولي عليّ كل يوم الأحد، لأننا كنا بدلاً من التوجه إلى شاطىء البحر، نصعد إلى الجبل. وكنت أتوسل إلى والديّ أن لا يأخذاني، وأن يتركاني في بيروت مع أختي الأكبر، لأن الضجر يقتلني في بيت جدي. وكم حمدت الله لأن أهل لميا لا يملكون بيتاً صيفياً، وكم أحسست بالامتنان لوالديها. وبدأت الوساوس التي استحوذت علي في البداية تخف تدريجاً، وهي التي نجمت عن احتمال أن لا تجيء لميا في ذاك اليوم، أو أن ترتدّ ثانية إلى تلك الفتاة الهادئة النائية التي عرفتها في المدرسة.

لاحظت بعد وقت طويل، أنها كانت تقول لي أشياء كثيرة عن أخوانها، وشيئاً ما عن أبيها (الذي غالباً ما كان في الخارج يتابع أعماله). لكنها كانت بالكاد تذكر أمها. وعندما تفعل ذلك، يأتي كلامها وثيق الصلة بما هو مسموح به للميا وما هو غير مسموح به.

ويبقى ذاك الصيف ساحراً في ذاكرتي، إذ امتلك إشراقاً وسعادة اعتقدنا أنهما أمر مفروغ منه. كل شيء حدث على الشاطىء، وهناك كنا نتحوّل فتاتين صغيرتين مُسمّرتين تثرثران.

لم يكن شيء يزعجنا، باستثناء أمور قليلة حسبنا أن لا أهمية لها حينذاك، ولكن عندما أتذكر الان ذلك الصيف الحُلمي، تلقي هذه الأشياء القليلة ظلاً على ذاكرتي. فحينما كان الكسل يطوقني، ولا تكون بي رغبة في السباق، أو في تسجيل أرقام قياسية في حبس الأنفاس تحت الماء، يغدو وجه لميا متشنجاً بالغضب وأعرف أنها تحتقر كسلي. والآن، وبعد مرور عشرين سنة، ما تزال لميا رشيقة ونحيفة ونشطة. فتنتها تشبه كثيراً فتنة نورا، إبنتي، التي بلغت الخامسة عشرة من العمر.

لن أستطيع كبت الإحساس بأني مثل أم ممتلئة الجسم ابنتها ستبقى نضرة إلى الأبد. فنورا أشبه بلميا، وهي تحاول، على الأقل، تقليدها في طريقة مشيتها، وفي الأسلوب الذي ترتدي فيه ملابسها وفي النظرات المؤنّبة حين أغادر البيت دون ماكياج، أو دون تلميع حذائي.

في الأسبوع الماضي، اعترت نورا نوبة غضب شديد. يا إلهي، كم ذكّرتني ملامحها بوجه لميا الساخط، في ذاك اليوم، على شاطىء البحر؟ فقد كانت تريد منا الانتقال مجدداً إلى لندن، وكان من العبث محاولة إفهامها أننا غير قادرين على تأمين بيت كبير وجميل إلا في منطقة كمنطقة غرينفورد، حيث نقيم. فكيف سيتأتى لنا الحصول على بيت من أربع غرف في لندن؟ وشعرت باليأس فقلت لها «أنت، بالتأكيد، لا تريدين أن تشاركيني غرفتك، أو أن تشاركي أخوتك غرفتهم». وبعد كل هذه التضحيات والجهود، لا يبدو أن ابنتي سعيدة على الاطلاق.

ولم يكن زوجي، من ناحيته، يمد يد المساعدة، إذ كان كلما تتعقّد الأشياء ينكمش ويتناول كتاباً من الرف ثم يغور في صمت، وفي أفكار شديدة التجريد.

«نورا على حق، ما فائدة أن تلعبي دور امرأة من الطبقة الوسطى في ضاحية إنكليزية؟ لن تفيدي نفسك بأي شيء، وكل ما تبلغينه هو أن تصيري ربّة بيت سمينة ضيقة الأفق». هذا كان جواب لميا حين سألتُها النصح عبر التليفون. وأنا، في الحقيقة، لم أكن أسعى إلى النصح، بل إلى التشجيع والمواساة. كم يمكن للميا أن تكون قاسية، قاسية وفظّة وظالمة. لقد شعرت بالأذى. وقع كلامها كان قاسياً. صحيح أن وزني ازداد، لكنني أنجبت أطفالاً ثلاثة. يمكن للميا أن تتمتع بترف البقاء رشيقة، وبقراءة صفحة الفن في صحيفتي «الغارديان» و«الاندبندنت» اللندنيتين، من أجل «تفهّم أكثر دقّة لشؤون الثقافة»، كما تحب أن تعلن بثقة تثير الغثيان. فلميا غير مسؤولة إلا عن نفسها، وعن أناقتها وفتنتها. وهي دائماً في موقع المسيطر على ما حوله، حتى أن قلبها بدأ يتحجّر، وأخذت رقّتها تضيع ما بين فتنتها ونجاحاتها.

«أنا سعيدة بما أنا عليه»، قلت لها بصوت حاول أن يُخفي رعشته. وبدت لي كل الأبواب وهي توصد في وجهي. في البدء ابنتي التعيسة، وفي النهاية لميا، آخر ملجأ لي للمواساة، التي لم تفعل غير بصق كلماتها القاسية في وجهي. كان بودي أن أصرخ فيها، أهينها، وأخبرها أن ريتشارد كان على حق حين وصفها بالمرأة السليطة التي تثير السخط، وبأنها تفتقد الدفء، وأنها ليست نحيلة، بل باردة العظام لا أنوثة فيها. ولكن، كما هي الحال دوماً منذ ذاك الصيف الذي ابتدأ كل شيء به، حبست دموعي، والاحباط يخنقني، وشعرت بالخجل من زحف الغيرة عليّ حيال لميا.

أكره نفسي حينما يغمرني الحسد للميا. وكلما أشعر هكذا، أسرع نحو المرآة لإقناع نفسي بأننا مختلفتان فقط. أحدانا تكمل الأخرى. فردفاي مدوران وممتلئان، لأنهما حملا أطفالي الجميلين الثلاثة. وأعتقد أن قوتي أخذت تستقر على الأرض بثقة أكبر. وكلما أغدو أثقل وزناً، يصبح بيتي وعائلتي أكثر استقراراً. وفي حين تمتد قوة لميا عمودياً نحو السماء، فإن هذه القوة تصل إلى آفاق أخرى عبر جسدها النحيل الليّن الممتد. ولميا تصل إلى الأبعد دائماً، فتمدّ حدود الأشياء وتبدو كأنها تمطّ، بتعمّد، جسدها فوقنا جميعاً. وعندما أحس بالخجل أحاول تذكير نفسي بأني أنا من شجّع ابنتي كي تصبح مثلها. فإذا تزوّجت ابنتي وخيّب زوجها ظنّها، أردت لها أن تطلّقه كما فعلت لميا قبل ثلاث سنين، أردتها مستقلة ونشطة وناجحة كما لميا. إذن أي حق لي في أن أشعر بالحسد؟

جاءت لميا، يوم الأحد لزيارتنا، بعد المحادثة الهاتفية الأليمة. لم تخبرني بمجيئها، ولم تقدم لي اعتذاراً. أطلّ وجهها الأبيض الباسم، وشعرها الأسود المجعد من خلف باقة كبيرة جداً من ورود الميموزا والقرنفل الأحمر كانت تمسكها بيدها اليسرى وتُلقيها على صدرها. ثم قالت

وهي تناولني كتاباً كانت تحمله بيدها الأخرى «انظري، رواية كرايتون الشهيرة «Disclosure». كانت هذه طريقتها في الإيحاء لي بأنها لن تعتذر، إلا أنها، مع ذلك تقدّر رأيي، وتحب أن نناقش الكتاب معاً، «بالضبط كما اعتدنا أن نفعل في المدرسة والجامعة»، فكرت بنفسي بشيء من النوستالجيا.

لقد قرأت عروضاً لرواية كرايتون. لكن الشكوك ساورتني، لأني، عادةً، أتجاهل الإصدارات الأكثر مبيعاً (Best Sellers). فالإعلام، هذه الأيام، يخلق في كل أسبوع عبقرياً جديداً في الأدب، ويعلن عن أعظم المؤلفين منذ جويس وبروست.

ـ قلت شكراً، إنها لفتة حسّاسة منكِ. ليتكِ انتظرتِ صدور الطبعة الشعبية. أعرف أنك قرأت الرواية، لكن ألا تعتقدين أنه كان من الأفضل قراءة أديب أعرف بمسائل المرأة يعالج موضوع التحرشات الجنسية؟ أنا لست ضد نجاح الحديقة الجوراسية، لكن مثل هذا النجاح لا يمنح كرايتون المؤهلات اللازمة لدرس ما يسمى بال «جوع إلى السلطة عند النساء».

ـ هل تعنين أن المرأة والأكاديمية النسوية لهما وحدهما الحق في بحث مثل هذه المواضيع المقدسة؟

صاحب سؤال لميا إيماء لعوب رف في قزحية عينيها وابتسامة مداعبة صغيرة. كانت تدعوني إلى أن لا أستقبل ملاحظتها بكثير من الجدّ، محاولة ما في وسعها أن لا تكون عدوانية.

لكن جدياً، هذا خيال ذكري، أو في أحسن الأحوال ترجمة له، قلت. فالنساء لا يخلطن السلطة بالجنس، كما يفعل الرجال، أو، أستميحك عذراً، بعض الرجال. فالمدير حين يتحرّش بسكرتيرته جنسياً، يعلن بهذا تفوقه، مشدداً على سلطته التراتبية. وعندما تتوصل المرأة إلى بلوغ أعلى مرتبة في المهنة، تحاول دوماً إقامة المسافات بينها وبين المرؤوسين الذكور، وهذا يتطلب منها نزع ما يبدو جنسياً فيها.

ـ كيف تجزمين بهذا؟ فمؤخراً جداً فقط بدأنا نسمع عن محاكمات رجال متورطين في تحرشات جنسية، أما وجود نساء كمدراء عامين فظاهرة حديثة تماماً. إن شهوة السلطة لا جنس لها. والواقع أني أفضل النساء اللواتي يجابهن ذلك على اللواتي يخفين مثل تلك الأمور. ما أكرهه هو النفاق.

ـ تمهلي لحظة. اعتقدت أننا، نحن النساء، مختلفات، أردنا خلق عالم بقيم جديدة، عالم تختفي فيه التراتبيات التي توجدها قيم الذكور.

ـ حقاً؟ قالت لميا وهي تندفع في مزاجها المشاكس، مادّة عنقها إلى الأمام نحوي، فيما تعلو شفتيها سخرية متهكّمة، ثم أضافت:

- من يقول هذا، السيدة بوتو أم أمها؟

لميا تتقدّمني على الدوام، فلا أكاد أهضم فكرة من أفكارها حتى تبادرني بفكرة أخرى. فأنا لا أستطيع الجري سريعاً ولا أريد ذلك، خصوصاً عندما تلوي شفتيها وترفع صوتها. أنا لا يمكنني أن أفكر ما لم تكن النبرة ناعمة ومريحة.

وفجأة رأيتني أقول «آه يا إلهي، لقد نسيت إطفاء الغاز تحت المقلاة»، وهرعت إلى المطبخ.

التقطت لميا مجلة كانت موضوعة على الطاولة وأغرقت نفسها فيها، وهي تدرك أن الوقت حان لإغلاق النقاش. فقد أرادت تحسين الأمور بيننا، وبذلت جهداً حقيقياً كي لا نضيع في المساجلات.

في المطبخ قلت لنفسي «هذه هي لميا، تكره ما تسميه النفاق. وعندما تتفوه بهذه الكلمة أعرف أنها تغلي من الداخل، لذلك أفضل شيء هو ترك الأمر هكذا. صورة أمها، الست سلمى، تلتصق، عندها، بهذه الكلمة».

أشعر الان بالأسى على الست سلمى. لم أكن أحبها، ولكن في هذه الأيام أجدني غالباً أحاول تليين لميا ودفعها إلى أن تتسامح معها، مدركة أن النجاح لن يحالفني.

ألقيت بنظرة عبر النافذة، ورأيت لميا مسترخية، تقرأ المجلة، وتمد ساقيها أمامها، واضعةً جزمتيها السوداوين الثقيلتين على الطاولة المدوّرة للحديقة. كم هي تختلف عن أمها. فعندما بلغت الست سلمى عمرنا الحالي، بدأ ظهرها ينحني، وأخذت تلبس الألوان الرمادية وتتحدث بصوت خفيض. كان خوفي من الست سلمى يزداد كلما زاد تصرّفها الذي يوحي أنها لا تريد أي شيء لنفسها على هذه الأرض. ألهذا ترتدي لميا دوماً أثواباً قوية للبصر؟ هل تحتاج، من أجل تدمير مثال أمها، إلى مواصلة تغيير العشاق، مختارة دوماً رجالاً متزوجين؟

أميل إلى الاعتقاد أنها تحب التحدي، لكني الان مقتنعة أكثر فأكثر، بأنها في علاقاتها مع المتزوجين، تستطيع الاحتفاظ بأيام الآحاد لنفسها، كي لا تكرر أبداً كلمات الست سلمى: «تسألونني ماذا أحب أن أفعل اليوم؟ متى كنت أستطيع القيام بأي شيء يوم الأحد؟ شيء لا علاقة له بك أو بالأطفال»، أو «لن أرتاح إلا في سرير موتي، فحياتي لها معنى واحد على هذه الأرض، أن أضحي بنفسي من أجلكم..»، أو أيضاً وأيضاً «أنا لست مثل النساء الأخريات، اللواتي يهتممن بمظهرهن ويدلّلن أنفسهن. ليست عندي مطالب لنفسي أو وقت لها. كل شيء أفعله من أجله - وتعني السيد عادل، والد لميا - ومن أجلكم».

لكن الست سلمى كانت كل شيء ما عدا كونها ضحية. فهي كانت تحدق دوماً في قدمها، وكأنها متواضعة لا ترفع رأسها، إلا أنها تتدخل في كل تفصيل صغير، وفي كل خيار كبير يقوم به أي فرد من العائلة. كانت تقسو على لطيفة وتهينها، وهي الخادمة العجوز التي

تربطها علاقة قرابة بها. ومع أنها كانت، على الأرجح، تصغرها سناً، اعتادت الست سلمى على مناداتها بـ «الساحرة العجوز»، وعلى وصفها بأنها «تأكل وتنام وتستفيد من كرمي وطيبة قلبي».

«هذا من غضب الله». الست سلمى أحبّت هذه العبارة وكانت ترددها بمواجهة أية مشكلة، أو مأساة، أو حادثة تلمّ بأحد. وتفسيرها الواحد الوحيد «أن غضب الله يسقط على كل من فعل ما يجعله يستحقّه». كانت تدعو الست سميرة، وجارتها أولغا، العروس الجديدة، كل صباح يحمل خبراً سيّئاً، وتأمر لطيفة بتحضير النرجيلة، فيما ترتدي إحدى بدلاتها الرمادية، ثم يأخذ الهياج بالتسلط عليها عند إعلان الأنباء المأسوية. فإذا ما نُقل ابن مدام أنجيل إلى المستشفى لإصابته بذات الرئة، فلأن مدام أنجيل «لا يشغلها سوى وضع المكياج على وجهها، ومحاولتها الدؤوبة أن تبدو نضرة وجذابة»، ولهذا تراها أهملت ابنها. وإذا ما أساء الزوج معاملة زوجته ثريا جرّاء سكره ومعاشرته النساء الأخريات، فلأن ثريا لا تصلّي بما فيه الكفاية. تقذف الست سلمى، بهذه الطريقة أو تلك، بكل سمّها في النساء الأخريات، ثم تتطلع بابتسامة متواضعة نحو الست سميرة وتقول «ليحمنا الله من هذه المآسي، كلنا مذنبات، وأنا لم أقم بالواجب الكافي تجاه عائلتي، وكما هو مقدّر عليّ».

وستعترض الست سميرة، بين نَفَس من الدخان وقطعة من الكعك، بصوت عال فيما تعلو الحمرة وجهها: «آه، لا تقولي ذلك، يا ست سلمى، أنت قديسة، ولن توجد امرأة مثلك بعد اليوم».

حين كانت تحصل جلسات كهذه ونحن في البيت، كنا نصغي، أنا ولميا، عبر باب الصالون الأخضر الصغير الذي يحاذي قاعة الاستقبال التي تقام فيها عادة مناسبات خاصة. وتقوم لميا بعدئذ بتقليد حركات وجه أمها وهي تثرثر على الناس، أو تلتمس التماساتها المستمرة لرحمة الله. في البدء تجلس كالأم الحزينة، حنونة وخجولة، ثم تنهض وتبدأ بتحريك شفتيها أسرع فأسرع، فيما عيناها تجولان في الغرفة متفحصتين أجزاءها بتعبير مُعتم وحقود، وبعد ذلك تشبك يديها، وترفع رأسها إلى السماء تطلب مغفرة الله، لكنها لا تلبث أن تتطلع إلى الجانبين لتتأكد من أن الجميع يرونها في وضع الصلاة هذا. وعندما نسقط على الأرض ضاحكتين، تسرع لطيفة إلينا وتتوسل أن نهدّىء ضجتنا، لأنها هي من سيتلقى العقاب جراء ما نفعل.

والست سلمى ليست من يرتكب العمل البشع أو الصاخب. فهي تدفع زوجها للقيام بذلك نيابة عنها، أو أن هذا ما تقوله لميا. فقد «اعتادت على انتظار عودته من العمل، لتسحبه إلى الغرفة وتغلق الباب، لساعات عديدة، منتحبةً أمامه، مفضية إليه بكل مشاكلها وكل الشقاء الذي ينزل عليها كائناً من كان مصدره. بعدها يخرج أبي من الغرفة يغلي غضباً على لطيفة، ويهدد برميها في الشارع أو إنزالها في بيت للمسنين، أو، يهدد بمعاقبتنا بسجننا في الغرفة، أو

عدم تزويدنا بالهدايا. وقد فرض مرة على صلاح البقال طرد الصبي ابن الـ ١٤ سنة الذي يعمل عنده، لأنه لم ينفذ أوامر أمي بسرعة».

ولميا لم تلق اللوم أبداً على أبيها، بل، وباستمرار، على أحابيل أمها ومؤامراتها المؤذية. فالسلطة تكمن في كل شيء وأي شيء، قالت لميا وهي تغادر بيت والديها، عازمةً على أن «أكون قوية وصريحة. سأفعل ما بودي أن أفعله بنفسي، وسأتحمل مسؤولية قراراتي». هذا ما فعلته حقاً، وأشهد لها من جانبي بذلك. فلميا تبدو قوية جداً. وهي قوية بالفعل، إما لأنها لا تعرف الخوف، أو، وهذا أكثر احتمالاً، إما لأن الأسهل لنا أن نصف بهذه الكلمات حريتها المقلقة.

رحت في تفكير عميق، ولم ألاحظ نورا تخرج من غرفتها، فيما تناهى إلى سمعي صوتان يتجادلان. كانت لميا تطرح حججها على ابنتي. وددت لو استطعت سماع ما تقولان، لكنني اعتقد أنني أعرف ما يدور بينهما، وقد شعرت بالامتنان للميا إذ وقفت إلى جانبي. هكذا تلقّنني لميا ثانية أن الحسد أسوأ العواطف. فهي تدافع دوماً عن النساء، وتستمد قوتها من هذا التضامن، من الصورة السلبية للست سلمى.

كم مرة سمعنا الست سلمى تقول لجمهورها المصغي: «ماذا وجد فيها، فهي ليست جميلة، أو غنية، أو حتى من عائلة معتبرة». وفي كل زيجة، كانت تجد الرجل أفضل من المرأة على طول الخط. وبعد أن يتطاير رذاذ ملاحظاتها السلبية عن هذه المرأة أو تلك، وعائلتها، تتخذ وضع القديسة من جديد وتقول: «لا أتمنى لهما إلا السعادة، ولا يخطر في بالي إلا أحسن الأفكار تجاه كل واحد منهما».

جاءت نورا إلى المطبخ، وقبّلتني ثم قالت: «آسفة، لميا على حق. إذا كنت أريد العيش في لندن، توجّب عليّ إيجاد وسائلي الخاصة لتأمين ذلك. وهي على حق حين تقول إن الغربة صعبة وفيها مسؤوليات».

«نعم يا عزيزتي»، أجبت ابنتي وقبّلتها، غير أني شعرت أن عينيّ تغدران بي، إذ أحذتا تنديان، وأنا أجاهد كي أقول «لا ترهقي نفسك كما تفعل لميا». بدلاً من ذلك، هربت إلى الخزانة والتقطت صينية وبدأت بتحضير القهوة التركية. فهي طريقتنا التي نعلن فيها أننا ما نزال لبنانيين، وأننا أوفياء لطقوس قليلة بقيت معنا. فتناول الشاي يبدو لنا كأنه نوع من الخيانة. حتى ريتشارد، تعلّم إطراء قهوتنا أمام أصدقائه، وعندما تخلى عن شرب الشاي، اعتبرت ذلك تأكيداً للحب وإمارة على إخلاصه لي.

لثلاثة أسابيع، لم تزرنا لميا أو تتلفن. بدأ التوتر يستولي عليّ، وراح صوتها، على مسجّل التلفون، يبدو لي كأنه يزداد قلقاً. علّق ريتشارد محاولاً طمأنتي «إنه قلقك الخاص أنت، أذ

تعتقدين واهمة أن لميا مثل إلهة، ينهار العالم حينما لا تكون هناك». كان صوته يحمل أثراً من مرارة فحاولت ترضيته بقبلة، لكن كلينا كان يعرف أن لا شيء سيمحو ذلك الأثر. ومع ذلك بقينا نأمل أن تطل لميا علينا ثانية. حدث هذا مساء الجمعة، وحاولنا تسوية قلقنا عبر مشاهدة فيلم بوليسي عادي على شاشة التلفزيون بعد أن صعد ولداي إلى غرفة نومهما، فيما وضعت نورا على رأسها سماعتي الأذن وغابت في موسيقى الراب.

وفي التاسعة، صباح السبت، وحينما كنت أرتشف أول فنجان قهوة، بلغ سمعي صوت سيارة تتوقف. أسرعت إلى الطابق السفلي، كي لا أقطع ريتشارد عن قراءة جريدته، ومن أجل أن أراها في البداية وحدي. بدت لميا مختلفة، مرهقة، فيما تظهر خطوط عميقة تحت عينيها من جراء ليال بلا نوم. ومع ذلك كانت جميلة جداً بحالتها المتوعكة تلك. بصعوبة علت فمها ابتسامة ملتوية، وقالت لتوضح الأمر «كل شيء يسير في الاتجاه الغلط. اختاروا ألن لهذا المنصب، برغم أنه لا يستحقه. كنت أريد هذا المنصب لكنهم أعطوه إياه لأنه متزلّف. هذا ما يريدون. ولطيفة تريد البقاء معي، لأن أمي تهدد بإرسالها إلى مأوى للمسنّين، بائس ورخيص وقذر. أما صولي الذي أراه منذ سنة، فيقول لي إما أن أتزوجه أو تنتهي العلاقة. ولأجل ذلك ترك زوجته وعائلته الشهر الماضي. لا شيء يعمل كما يجب».

جلست لميا في حجرة الجلوس، فيما عجّلت أنا في صبّ قهوة الصباح لها. وعندما عدت، كانت عيناها مغلقتين. راقبتها للحظة في جلستها تلك. ساقاها كانا منفرجين قليلاً، ويداها مرتخيتان على حضنها. تجلّت لي في تلك اللحظة تشبه أمها، تعيسة تنتابها المرارة. لن أود أبداً أن أراها في تلك الحالة. أرفض أن أرى فيها ما يذكّرني بأمّها. طغى اليأس علي، فدائماً كان باستطاعتي التعبير عن الأسى تجاه الست سلمى، لكن الإعجاب بلميا هو ما أحتاجه دائماً.

تُحزنني فكرة أن أحزن على لميا. إنها فكرة تنزع استقراري. وبأنانية قلت لنفسي: «بعد لحظة ستنهض لميا قويةً رائعةً، وتنتصر».

فتحت لميا عينيها، وتطلّعت إليّ ثم قالت «أتعرفين، إني حقاً أحسدك. أنتِ من يمسك بزمام الأمور، وأنا لا أزال أحاول ذلك. لقد حزمت رأيي وسأتخلّص من صولي فهو متطلّب جداً. سآخذ رئيس التحرير إلى محكمة تفصل في القضية، لأنه منح المنصب لرجل أقل كفاءة مني، والسبب أني امرأة. وبالنسبة للطيفة، سأجد لها حلاً. هيا، غيّري ملابسك، لم لا نذهب في نزهة؟».

صعدت إلى غرفتي لتبديل ملابسي، وأنا أحس بالسعادة. نعم، أنا من يمسك بزمام الأمور. كلهم يأتون، في آخر المطاف، إليّ، إلى بيتي. أنا محور استقرارهم. سيضيعون من دوني، كلهم، بمن فيهم لميا.